إزالة الحواجز

دعونا نزيل الحواجز.. ونقترب أكثر من حياة الصحابة

عندما بدأت الكتابة في « حياة الصحابة» ، كنت أدرك أن الصحابة يمثلون لكثير من الشباب عالما غامضا..

ومستحيلا..

غامضا.. لأنه لا يحتوي على تفاصيل دقيقة، تنقل المشاعر والأحاسيس، وترصد صراعات البشر مع الحياة، وجولات الإنسان مع النفس، التي تميل دائما إلى الدنيا والارتماء في أحضان الشهوة، وترفض المشقة والتضحية والصمود.

غامضا..لأن الأسلوب الذي نقل إلينا من حياة الصحابة، جعلنا نتصور أن الأحداث قد حدثت بدون مقدمات، وأن الحقائق تم التوصل إليها دون جهد في التفكير وقدرة على التحليل وشجاعة في اتخاذ القرار.

ومستحيلا.. لأننا تصورنا أن الصحابة لا يخطئون مثلنا، وأن نفوسهم من نوعية خاصة لا تميل إلى الدنيا كما نميل، وأن قراراتهم دوما محسومة ودوما جاهزة، لتكون في سبيل الله، دون أدنى تفكير أو تردد.

لقد تصورنا ببساطة أنهم معصومون.. وهم ليسوا كذلك.

واعتقدنا أنهم لا يخطئون.. وهم في الأصل بشر، لابد أن يخطئوا، كما لابد أن نخطئ نحن.

لقد ظننا أن القدوة لا تخطئ، ولا ينبغي لها أن تخطئ..

وأقنعنا أنفسنا أن المثل لابد أن يكون معصوما، وأننا ما دمنا وضعنا شخصا ما في مكانة القدوة والمثل، فليعلم أنه ممنوع من الخطأ !

ونتيجة لهذا كله، لم نتحمل أن نقتنع – ولو لبرهة – أن الصحابة يخطئون، كما أخطأ من قبلهم ومن بعدهم، لنوقع بذلك أنفسنا في خطأ تاريخي، وخطأ شرعي، وخطأ تربوي..

تاريخي..لأن التاريخ رصد أخطاء للصحابة ، ونزل القرآن بذلك: ﴿ **مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ** ﴾[آل عمران:١٥٢]، وكان رسول الله ﷺ يصوبهم، مثل قوله لأبي ذر: «إنك امرؤ فيك جاهلية»، وذلك لمقولة سيئة قالها، وقد أخطؤوا بعد رسول الله ﷺ في مواقف مسطورة في كتب السنن وفي الروايات التاريخية الثابتة.

وشرعي.. لأن المقرر عن أهل السنة، أن الصحابة غير معصومين من الخطأ، ولكننا رغما عنهم، نصر على أن ننزلهم منزلة المعصومين.

أما الخطأ التربوي..فلأن افتراض أن القدوة لا تخطئ يحمل الإنسان أكثر مما يطيق، ولن يطيق، بل ويحطم نظرية القدوة من الأساس؛ لأنه لن يوجد إنسان على وجه الأرض يمكنه تجنب الخطأ طيلة حياته، مهما حاول واجتهد.

كل هذا جعلنا نعتقد أن عالم الصحابة هو عالم غير عالمنا، وأن الصحابة أشبه بالكائنات

الفضائية، صاحبة القدرات الخارقة والإمكانات الفائقة، والتي لا يمكن بحال أن تتوفر لنا.

وهذا الاعتقاد.. جعل الأمر في غاية الخطورة..

وغاية الإحباط.

غاية الخطورة..لأنه قطع الطريق على الجميع كي يقلدوا الصحابة..

لماذا؟

لأنهم صحابة !

ويكفى الإيحاء الذي تحمله الكلمة؛ لأن ينسف كل محاولة للتشبه بهم وتقليدهم والسير على نهجهم في حياتنا اليومية، بعد أن أقنعنا أنفسنا أننا لسنا مثلهم، حتى نحمل رسالة وندافع عنها ونتحمل الكثير في سبيلها، وأن معاني الصمود والتضحية والدفاع عن الحق، قد تضاءلت بفعل الزمن، وخفت وميضها في النفوس، على مر السنين.

وهوأمر محبط أيضا..

لأنه يعنى أن كل ما فعله الرسول ﷺ والصحابة طوال مشوار جهادهم، سواء في حياة الرسول ﷺ أو بعد وفاته، ليس له أي قيمة، أو معنى !

لقد فعل الصحابة ما فعلوا وتحملوا ما تحملوا، من أجل أن يبلغوا الرسالة للأجيال من بعدهم، والذين لا ينبغي أبدا أن يتنصلوا من حملها وأدائها.

فإذا بالأجيال من بعدهم ترفض حمل الرسالة، بدعوى أنهم ليسوا صحابة مثلهم !

إن هذا الفهم، يعني انهيار كل ما فعله الصحابة من أجل الإسلام..

ومن أجلنا.

إنها الحواجز.. التى صنعناها بأيدينا بيننا وبين أناس مثلنا، تميزوا فقط بأنهم عاشوا في معية الرسول ﷺ، فتحدثوا معه وتعلموا منه.

وأنا لا أنكر هذه الميزة على الإطلاق.. ولكنها لا تنفى أبدا أنهم أناس مثلنا، يخطئون ويصيبون مثلنا، ولا تنفى أبدا أن تركيباتهم النفسية لا تختلف عن التركيبات النفسية لغيرهم من البشر، وأن الاختلاف الوحيد بيننا وبينهم، هوالجرأة في اتخاذ القرار، والشجاعة في تحمل المسئولية، والصدق مع الله إلى أبعد الحدود.

إنها الحواجز.. التى صنعناها بأيدينا لنرضى بواقعنا ونستسلم له، ونقلل من شأن أنفسنا، ونجعلها تستمرئ الضعف والكسل والمعصية، وتنبذ الطاعة والصمود والتحدي، والدفاع عن المبدأ وحمل الرسالة.

إنني في هذا الكتاب، ومن خلال ثلاثة وخمسين شخصية، حاولت ما استطعت الاقتراب من

الصحابة أكثر وأكثر، حتى نستطيع أن نراهم من الداخل، في وسط بيئة تحمل مفردات، لا أظنها تختلف كثيرا عن مفردات عالمنا بعد أربعة عشر قرنا من الزمان.

إنها محاولة كي نقترب من أناس مثلنا، اختارهم الله في حقبة من الزمن، كي يظلوا قدوة لنا حتى آخر الزمن.

وهذه الدراسة.. هى محاولة إضافية للاقتراب أكثر وأكثر، حتى نقتنع أن ما فعله هؤلاء الصحابة، نستطيع نحن أن نفعله اليوم.

فقط لو أردنا..

فلا مانع مطلقا أن يكون بيننا مصعب بن عمير..

وليس من المستحيل أن يخرج من بيننا صهيب الرومي وجعفر بن أبي طالب وحمزة بن عبد المطلب وأبو عبيدة بن الجراح..

ومن الممكن أن يخرج للعالم من جديد..عمر بن الخطاب.

أرجوكم..أعطوا لأنفسكم الفرصة لأن تروا الصورة من قريب..

وستجدون أن الفارق ليس شاسعا كما تظنون..

فلنحاول.

* * *